التراث الروحي الأرثوذكسي ٣

الهرم الفردوسي



القديس نيقولاوس الصربي

ترجمها عن الروسية : عامر هلسا

سلسلة التراث الروحي الأرثوذكسي ٣

الهرم الفردوسي

الجبل للنشر والتوزيع
التراث السلافي الأرثوذكسي

الكتاب : الهرم الفردوسي .
الكاتب : القديس نيقولاوس الصربي .
المترجم : عامر هلسا .
الناشر : الجبل للنشر والتوزيع .
الطبعة : الأولى ، ٢٠١٦.

لطلب الكميات داخل جمهورية مصر العربية :
٠٠٢٠١٢٧٧٣٩٧٧٧٢
لطلب الكميات داخل المملكة الأردنية الهاشمية :
٠٠٩٦٢٧٩٦٥٠٠٣٣٢

الهرم الفردوسي

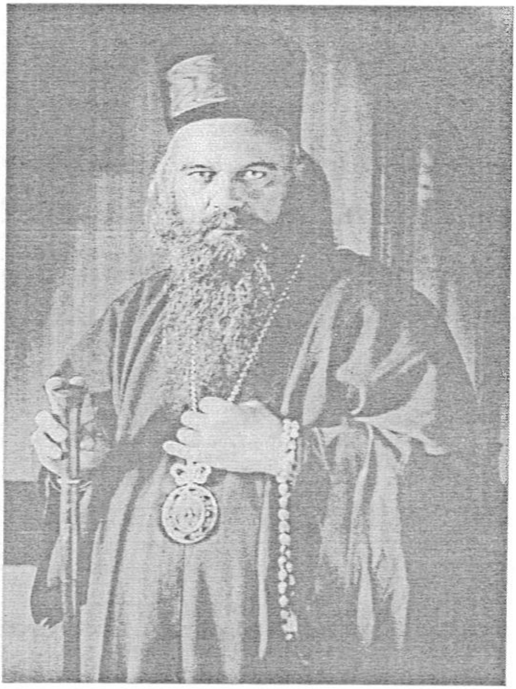
تفسير وصايا التطويبات

القديس نيقولاوس الصربي

ترجمة / عامر هلسا

مراجعة : الدكتورة / يوليا بيتروفا

دليل الكتاب



القديس البار نيقولاوس الصربي

حياة البار نيقولاوس الصربي (نيقولاي)

❖ ولد القدّيس نيقولاي فجر ٢٣ كانون الأوّل عام ١٨٨٠، لوالدّين تقيّين، في ضيعة صغيرة، اسمها ليليش جنوب غرب فالجيفو.

❖ أُعطي اسم نيقولاي تيمّناً بالقدّيس نيقولاوس العجائبي (المعيّد له في ٦ كانون الأوّل) أسقف ميراليكية الّذي كان شفيع العائلة.

❖ عندما أنهى نيقولاي الصّفّ السّادس، في مدرسة فالجيفو، قدّم طلباً للالتحاق بالمدرسة العسكريّة. إلا أنّه لم ينجح في الامتحان البدنيّ لأنّه كان، بحسب لجنة اللّياقة البدنيّة، صغير البنية، كان هذا، دون أدنى شكّ، تدبيراً إلهيّاً، شاء به الرّبّ الإله أن يقود نيقولاي في مسيرة مختلفة، ويجعل منه جنديّاً في الملكوت السّماويّ، وفور صدور قرار المدرسة العسكريّة، قدّم نيقولاي طلباً للدّخول إلى معهد القدّيس سابا في بلغراد، حيث قُبل كطالبٍ.

❖ وفي ٢٠ كانون الأوّل ١٩٠٩، شُرطن نيقولاي راهباً وأُعطي اسم شفيعه القدّيس نيقولاي، وفي اليوم عينه، صُيّر كاهناً.

❖ في صيف ١٩١٤، نشبت الحرب العالميّة الأولى، ودخلت شبه الجزيرة البلقانيّة دائرة الاضطرابات. كانت الدّولة الصّربيّة بحاجة ماسة إلى قائد يساعدها على تخطّي هذه الأزمة الدّوليّة. ولهذا الهدف بعثت بالأرشمندريت نيقولاي ضمن بعثة ديبلوماسيّة رسميّة إلى إنكلترا

للحصول على دعم الدّولة البريطانيّة للشّعب الصّربيّ.

❖ انتخبته الكنيسة الصّربيّة الأرثوذكسيّة أسقفاً على زيخا وهو الكرسيّ التّقليديّ لرئيس أساقفة صربيا. كان عمره حينئذ٣٩ سنة.

❖ عام ١٩٤١، احتلّت القوّات الألمانيّة يوغسلافية واعتقلت الأسقف نيقولاي مع البطريرك جبرائيل دوزهيش وأودعتهما معتقل داشو في ألمانيا. عُرف هذا السّجن بعدم إنسانيّته. أمضى نيقولاي فيه سنتين عانى خلالهما أشدّ التّعذيبات الّتي يمكن أن يحتملها إنسان. وقد نسب نجاته من هذه المحنة الصّعبة إلى والدة الإله فكتب لها في السّجن "**القانون الابتهالي وصلاة لوالدة الإله الكليّة القداسة**" بالإضافة إلى مؤلّف عن يوميّاته في السّجن. في ٨ أيار ١٩٤٥، أُطلق سراحه بفضل الفيلق الأميركيّ.

❖ بين العامين ١٩٤٦ و١٩٤٩، علّم المغبوط نيقولاي الدّائم الوفاء لبلده في معهد القدّيس سابا في ليبرتيفيل في إيلينوي. أيقن نيقولاي أهميّة نقل التّعليم الأرثوذكسيّ باللّغة الإنكليزيّة للصرب الّذين ولدوا في أميركا فنشر عدداً من مؤلّفاته الدّينيّة باللّغة الإنكليزيّة. وآخر كتاب كتبه كان **سيرة القدّيس سابا**.

❖ في ١٨ آذار ١٩٥٦، رقد الأسقف نيقولاي في قلايته الوضيعة في دير القدّيس تيخون. يروي الأب أفنازي رقاده كالتّالي: قام الأسقف بخدمة القدّاس الإلهيّ في يوم السّبت الواقع فيه ١٧ آذار. كل شيء كان غير

اعتيـاديّ وجميـل. بعـد القـدّاس ذهـب إلى غرفـة المائـدة حيـث كـان الرّهبان جالسين. وبعد حديث قصير، ضرب مطّانيّة صغيرة وتمتم ثلاثة مرّات: "**اغفروا لي، يا إخوتي**"، ثمّ خرج. هـذا كـان حدثاً مميّزاً إذ لم يسبق له أن قـام بشـيءٍ مماثـلٍ مـن قبـل. صباح الأحـد أتـى الأب فاسيلي ليفتقده في قلايته، قرع الباب وإذ لم يحصل علـى جـواب، دخـل فوجـده راقداً في وضعيّة الصّلاة ساجداً. رقاده كان بين السّابعة والثّامنة صباح هذا اليوم. وقد بلغ من العمر ٧٦ سنة. جـرى دفنـه في ديـر القـدّيس سـابا الصّربيّ في ليبرتيفيل في الجانب الجنوبيّ لكنيسة الدّير.

❖ ثمّ في ٢٧ نيسان ١٩٩١، نُقلت رفاته إلى صربيا إلى دير شيليجي في ضيعته في ليليش قرب مقبرة القدّيس يوستينوس بوبوفيتش (+ ١٩٧٩). غرفته في دير القدّيس تيخون تحوّلت إلى مزار حيث يأتي النّاس للتّبرّك والصّلاة.

❖ قال عنه تلميذه القدّيس يوستينوس بوبوفيتش عام ١٩٦١ في الذكرى الخامسة لرقاده في الرّبّ:

شكراً، يا ربّ، لأنّ عندنا رسولاً جديداً! شكراً، يا ربّ، لأنّ عندنا إنجيليّاً جديداً! شكراً، يا ربّ، لأنّ عندنا معترفاً جديداً! شكراً، يا ربّ، لأنّ عندنا شهيداً جديداً! شكراً، يا ربّ، لأنّ عندنا قدّيساً جديداً!.

❖ أُعلنت قداسته في ١٩ أيار ٢٠٠٣. تُعيّد له الكنيسة الأرثوذكسيّة في ١٨ آذار و٢٧ نيسان.

الهرم الفردوسي

تفسير وصايا التطويبات

"فلستم إذًا بعد غرباء ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله. مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح" (أف ٢ : ١٩- ٢٢).

مقدّمة

في الأزمنة القديمة بنى الفراعنة أهرامات من الحجر. بعض هذه الأهرامات كانت على ارتفاع خمسين متراً، البعض الآخر مئة متر وبعضها تجاوز ارتفاعها المائة متر. وهناك أهرامات أعلى مرّتين من كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية التي تعتبر أعظم كنيسة في المشرق الأرثوذكسي. وفي الحقيقة هذا لغز، فلماذا بنى الفراعنة أهرامات ضخمة كهذه؟ على أية حال كل ما يتعلق بمصر القديمة هو لغز وحكاية وهاجس.

من المرجّح أن الفراعنة شيّدوا هذه الأبنية الحجرية العملاقة حالمين بالخلود لأنفسهم. كانوا يحلمون بخلود الجسد ولو أنهم تحرزوا بخلود النفس أيضاً. وفي جميع الأحوال كان الحافز الآخر لبناء الأهرامات

هو الغرور ومنافسة الفراعنة لبعضهم البعض. كل واحد منهم رغب في أن يخلّد نفسه في صرح يتحدّى الزمن ويبقى قائماً طالما الأرض قائمة. في كتاب الأموات لقدماء المصريين توجد نبوات عن الدينونة الآتية للإله أوزيريس وعن خلود الإنسان، لكن كل هذا مذكور بطريقة مبهمة وغامضة ومعتمدة على التخمين.

التخمين حول خلود الإنسان في مصر القديمة تمّ الإعلان عنه في المسيحية كحقيقة واقعية. لا نجد إلا في المسيحية مفهوم الخلود متنقياً من كل ضلالات الفراعنة ومنفصلاً عن غموض الرؤى الوثنية وعن التخمينات الخيالية والتبصير حسب المزاج. مفهوم الخلود في العصر المسيحي مؤسّس على وجود الإله الحي الواحد ومرتبط بذبيحة المسيح الخلاصية وقيامته من الأموات وانتصاره على الموت.

والمسيحية بدورها حثت الناس على بناء الأهرامات. إنها حثت على هذا العمل ليس فقط الملوك ومشاهير الناس بل جميع الذين يؤمنون بالمسيح ويتبعونه، لأن جميع المسيحيين مدعوون ملوكاً بحسب يوحنا الرائي: *"وجعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه" (رؤ ١ : ٦).*

وبناء على ذلك فإنه من الواجب الشريف على كل مسيحي أن يشيّد هرماً واحداً لنفسه. وبالتالي، فإن عدد الأهرامات في العالم يجب أن يكون بعدد المسيحيين.

هذه الأهرامات المسيحية لهي أكثر ارتفاعاً من أيّ هرم فرعوني، ولكن يتعذر قياسها بالأمتار العادية، فهي ترتفع أعلى من الشمس والقمر ومن الكون المادّي كله. إنها ترتفع إلى السماء ولا يمكن رؤية عظمتها وجمالها إلا في السماء. هي لا تخشى الزمن ولا الأمطار ولا الريح ولا الصقيع ولا القنابل ولا القذائف ولا أية قوة تدميرية غاشمة. كل العالم عاجز أمام هذه الأهرامات المسيحية. هي قائمة خارج حدود الدمار والموت. لها ضمانة الخلود في العالم حيث اسم الموت لا يُذكر وشوكة الموت لا تنخز.

وكل هذا لأن هذه الأهرامات روحية وهي أكثر واقعية من أية حقيقة مادّية. هي متأسّسة على أساس روحي،

وبالروح مبنية،

وبالروح مُزيّنة،

وبالروح مثبتة،

وللملكوت الروح مُخصّصة.

ضرورة هذه الأهرامات ومخطّط بنائها أعلن عنهما الرب يسوع المسيح نفسه. أمّا البناؤون فيجب أن يكونوا جميع الناس المعمّدين المُلهمين بمعونة الروح القدس الكليّ القدرة.

كل هرم كهذا يتكوّن من تسعة طوابق أساسية، والطابق العاشر هو برج الفرح الذي يتوّج به الرب نفسه كل البناء. كل طابق يحتوي على عدّة مستويات خاصة وعلى العديد من الأقسام. وكل الطوابق العُليا ترتكز على الطوابق التي تحتها بالضبط كما في أي بناء أرضي. وكل الهرم بأكمله رائع وأنيق يخطف الأبصار.

من المعروف أن الفراعنة بنوا أهراماتهم على الرمال مُحضرين الحجارة من أمكنة بعيدة. أما الأهرامات المسيحية فهي أهرامات فردوسية مؤسّسة على أكثر الأحجار صلابة وهذا الحجر هو المسيح، كما يقول الرسول العظيم: *"فلستم إذاً بعد غرباء ونزُلاً بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله. مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية. الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح القدس" (أف ٢ : ١٩- ٢٢).*

فلنتأمّل بإمعان في المخّطط العجيب للهرم الفردوسي وندرس كل طابق منه على حده طابقاً بعد الآخر.

الطابق الأوّل

على الشاطئ الغير مرتفع لبحيرة جنيسارت ذات اللون الأزرق جلس البنّاء الإلهي على العشب الأخضر وبدأ بوضع الخطوط الأولية لرسم البناء الجديد. ولكنه لم يخطّه على الرّق ولم يرسمه بالقلم على الورق، بل طبعه في نفوس تلاميذه بكلمات حماسية، مثل الختم الألماسي على الشمع الطري. توضح كلماته الأولى كيف يبدأ بناء الهرم الفردوسي وكيف يُبنى الطابق الأول.

"طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات".

نطق البناء الأعظم بهذه الكلمات فقط لوضع أساس الطابق الأول، أكبر الطوابق وأكثرها متانة، ذلك الأساس الذي يتوجب عليه أن يحمل على عاتقه كل البناء.

تكفيك هذه الكلمات أيها المسيحي، لو كنت حقاً تريد أن تبني هرماً ملكياً تتمتع به في الفردوس الأبدي.

أنت نفسك تعرف بأنه كلما كان أساس البناء عميقاً في الأرض كلما كان البناء أكثر ثباتاً. إن المسكنة البشرية هي عميقة جداً ومحتجبة بحيث أن الكثيرين لا يقدرون أن يصلوا إلى قاعها، لكن طوبى لأولئك الذين ينزلون إلى دركها الأسفل.

المسكنة بالروح هي ليست هدية ممنوحة من الخارج، لكنها الحالة الحقيقية للإنسان الذي يجب عليه إدراكها فقط. وقبل معرفة المسكنة يمرّ الإنسان باختبارٍ قاسٍ للذات. كل من يقدر على هذا يصل إلى المفاهيم الثلاثة للمسكنة:

١- المسكنة من وجهة نظر معرفتنا؛

٢- المسكنة من وجهة نظر صلاحنا؛

٣- المسكنة من وجهة نظر أعمالنا.

المسكنة هي أعلى درجات الفقر. عندما يتأمّل الإنسان في إمكانياته العقلية أو في مزاياه الأخلاقية أو في أعماله فإنه سيصل دائماً إلى قناعة بفقره العظيم المسكنة بكل معنى الكلمة.

لطالما أراد الإنسان أن يعرف مصيره، أراد أن يعرف من هو، ومن أين هو، وكيف يجب عليه أن يسلك محيكاً خيوط نسيج حياته، إلا أنه يرى، حتى لو أنه عالم، فإن كل معرفته بالمقارنة مع جهله تشبه حوض ماء أمام البحر العميق. هو يطمح أن يتفوّق بالفضيلة على المخلوقات الأخرى في العالم، لكنه يرى كيف أنه في كل خطوة يتعثر ويقع في مستنقع الظلم والشر القذر. هو يريد دائماً أن يُبدع أعمالاً عظيمة وضخمة، لكنه يرى بأنه بدون مساعدة من الخارج لا يقدر على شيء. وعلى هذا المثال، فمن جميع النواحي يقتنع الإنسان بضعفه وبعجزه.

الناس الآخرون لا يستطيعون مساعدته، لأنهم عاجزون وضعفاء مثله. عندها يلتفت الإنسان نحو خالقه ويركع أمامه إلى الأرض ويخضع لمشيئته ويصرخ طالباً المعونة. وهذا الإدراك لضعفه وهذا الفهم الكامل لعجزه يُسمّى **"المسكنة بالروح"**. ومسكنة الروح تناقض التكبّر بالروح، فالتكبّر أكثر عجزاً من مسكنة الروح، فإن المعرفة والشعور بالعجز لهو أقل عجزاً من التكبّر، لأن التكبّر هو ليس جهلاً فقط، بل حماقة أيضاً. التكبّر هو أمّ لجميع الحماقات ولجميع أعمال البشر الشريرة. معرفة النفس تعني مقدرة الإنسان على رؤية عجزه وضعفه والوصول إلى انسحاق القلب ليصرخ في النهاية نحو السيد طالباً الرحمة والمعونة.

الانسحاق أو التواضع الذي ينبع من فهمنا الصحيح لضعفنا هو الأساس لجميع الفضائل وأساس للحياة الروحية لكل مسيحي، وهو أساس الهرم الفردوسي. التواضع هو الباب نحو الله. ذات مرة تجادل الشرير مع القديس مكاريوس وفي النهاية صرخ قائلاً: **"يا مكاريوس! أنا أقدر أن أفعل كل الأشياء التي تفعلها، ولكنك تغلبني بالتواضع!"**. وقال أحدهم عن التواضع: **"التواضع ليس له لسان ليتكلم بالشر على الآخرين، وليس له عيون ليرى شرور الآخرين، وليس له آذان ليسمع كلام الشر الصادر عن الآخرين"**.

من أدرك أنه بعجزه لا يقدر على أي شيء بدون معونة الله يكون قد وضع أساساً وطيداً لهرمه الفردوسي. قال الرب: ***"بدوني لا تقدرون***

أن تفعلوا شيئاً". من الصبح الى الليل وفي كل خطوة يدرك الانسان العاقل صحّة هذه الكلمات. وإدراكه هذا يجعله عظيماً أمام الرب.

عندما يتخلّص الانسان من رياح التكبّر الشريرة يدخل في قلبه الهدوء ويحلّ الروح القدس فيه. وعندما يسكن الروح القدس في النفس البشرية، فإنه يبدأ هناك ببناء هرم فردوسي بنفسه بحسب مشيئته وبحسب فكره، لكن تحت ستار الإنسان.

أيّها الأرثوذكسي، المهمّ ألاّ تعيق روح الله بأن يسكن فيك ويبدع. المهمّ، أيها الأرثوذكسي، أن تحتقر في داخلك كلّ ما هو منك وليس ما هو من الله، سواء في حقل المعرفة أو في حقل المشاعر أو في حقل الرغبات.

لا تقل أيها المتكبّر: **"لماذا عليّ أن أذلّ نفسي وأهينها!"** لا أحد يطلب منك أن تهين نفسك، ولكن يجب عليك فقط أن تعترف بأنك أقلّ من الله. لا أحد يطلب منك أن تصبح حقيراً، اعترف فقط بلا جدال بعجزك الذي أنت فيه الآن. عندما تقتنع بهذا وتعترف، عندها فقط ستمتلك المقدرة على وضع الحجر الأول في أساس البناء الروحي لنفسك.

بعد ذلك بإمكانك أن تبني بالكامل كل الطابق الأول لهرمك الفردوسي الذي سيكون كله كأنه من حديد: قوياً مثل الحديد ومشرقاً بلمعان معتم مثل الحديد.

الطابق الثاني

عندما يكون الطابق الأول قد تم بناؤه بناء متيناً عندها أسرع أيها الأرثوذكسي لتشييد الطابق الثاني. الطابق الأول لا يسرّ العيون بجماله كما الحديد أيضاً لا يجتذب الأنظار لكنه قوي ومتين مثل الحديد الذي يُستخدم في إنشاء الأبنية.

الطابق الأول هو تحت الأرض أكثر ممّا هو فوق الأرض وهو تقريباً غير ملحوظ مثل أساس كل بناء. التواضع لا ينتمي إلى الفضائل المتألقة. الطابق الأول كله مكوّن من الأفكار عن حقارتنا الشخصية ومن الإحساس بضعفنا وعجزنا.

أما الطابق الثاني فكله من الدموع.

"طوبى للمحزونين لأنهم يتعزّون".

الدموع هي مادة عجيبة! هي لينة جداً لكن كم هي متينة! وهي تتلوّن مثل حجر الأوبال. وبالفعل الطابق الثاني بكامله هو طابق من الدموع ويظهر كأنه مبني من حجر الأوبال الكريم.

المتكبّر ليس لديه دموع. هو يفتخر بأنه لم يبكِ ولن يبكي أبداً. هو لا يفهم بأن هذا ضعف وليس قوة. من عينيه تقطر نار جافة تحرق القلوب البشرية. التكبّر نما في طبقة الأرض الرقيقة الجافة فوق

الحجر. بينما الرطوبة تكمن في العمق. إن الانسحاق أمام الرب يذكّرنا بحراثة الأرض العميقة حينما ترتفع للسطح طبقات الأرض الرطبة. الإنسان المنسحق والمتواضع القلب يبكي، ونفسه دائماً مليئة بالدموع وتشهد على ذلك عيونه. قد تكلم أحد المعلمين الأرثوذكسيين عن معموديتين: واحدة بالماء والأخرى بالدموع. معلم آخر كان يردّد قائلاً: "**ابكِ نهاراً وليلاً ولا تشبع من البكاء!**".

قد تفكّر بأن الدموع هي علامة الضعف. لا تفكر هكذا! المسيحيون الأوائل الذين بكوا أكثر من الجميع كانوا يذهبون إلى الموت وهم ينشدون التراتيل. قال القديس أنطونيوس الكبير: "**الدموع هي زيت العيون**". أكبر الخاطئات مثل مريم المصرية وتاييسي وبيلاجيا غسلن أرواحهن بالدموع وأصبحن قدّيسات، وهذا ما حصل مع آلاف آخرين.

بإمكانكم أن تسلكوا أنتم هكذا أيضاً أيها الأرثوذكسيون. من المعروف أنه بسبب الضحك يتوجّب التوبة وليس بسبب دمعة واحدة انسكبت. وها هي الكلمات المقدسة من الفم الأقدس:

"ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون" (لو ٦ : ٢٥). لم يحدث أبداً أنه من بذار الدموع نبت شرّ، أما من بذار الضحك فبالحقيقة نبت شرّ كثير.

ومـع ذلـك فلـيس كـل الـدموع هـي دمـوع ذات روح إنجيليـة. بناء الهرم الفردوسي لا يحتاج إلى دموع الغضب الانفعالي ولا إلى دموع الحسرة لخسارة أو عدم الحصول على غنى أرضي.

الدموع الإنجيلية – هي تلك التي تنهمر من قلب منسحق وتائب.

الدموع الإنجيلية – هي دموع الحزن على الفردوس المفقود.

الـدموع الإنجيليـة – هـي تلـك الـدموع الـتي اختلطـت بدموع الأطفال والمتألمين.

الدموع الإنجيلية – هي تلك الدموع التي تغسل ما أحدثناه من الضرر الذي لحق بالمحبة السماوية.

هذا يشبه كيفية تكوّن الندى عندما يلتقي الهواء البارد بالهواء الساخن، هكذا الدموع أيضاً من الطبيعي والسهل أن تنهمر من عينيْ الإنسان الذي يلتقي بدفء محبة الآب السماوي. "*صارت لي دموعي خبزاً نهاراً وليلاً*" *(مز ٤٢: ٣)*، يعترف الملك التائب داود، عندما التقى قلبه البارد بدفء شمس البرّ الروحية.

أولئك الذين لا يبكون أبداً لا يحصلون أبداً على التعزية. فالطفل الباكي فقط يمكن أن يتعزّى حينما تلاطفه أمّه.

ليس من العبث أن يُسمّى هذا العالم بوادي البكاء. فالرب نفسه عندما جاء إلى عالمنا سكب الدموع.

أيها الإنسان، أنت أمام اختيار بين بكاء وبكاء، لكن ليس بين بكاء وعدم البكاء. إما أن تبكي يائساً وبلا رجاء أمام النيرفانا❖ العمياء والصماء، وإما أن تبكي أمام المُعزّي الحي. وإذا بكيت أمام المُعزي الحي فستنال تعزية. الرب بنفسه سيظهر لك مثل تعزية لك.

وفي هدوء نفسك المتعزّية سيُكمل الرب بنفسه بناء هرمك الفردوسي.

❖النيرفانا – مفهوم الفلسفة الهندية وهي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق.

الطابق الثالث

"طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض"

وهكذا الطابق الثالث من الهرم الفردوسي يُنشأ من الوداعة.

الوداعة هي ابنة التواضع وحفيدة البكاء.

أعظم شخصيات السنين الغابرة مثل صموئيل ويوحنا المعمدان والدائمة البتولية مريم وُلدوا بعد أن استجاب الربّ إلى صلوات الدموع من أجل ولادتهم.

فضيلة الوداعة نفسها هي وليدة الدموع والصلاة. ولهذا بالذات فإن الوداعة غير منفصلة إطلاقاً عن الشخصيات المذكورة، كما لا تنفصل الدموع عن القلب .الوداعة يمكن أن تأتي في المرتبة الثالثة فقط، فالطابق الثالث يُبنى بعد الأول والثاني. وكما أنّ الهدوء والراحة يحلان بعد أن تسكب الغيوم أمطارها، هكذا تأتي كلّ وداعة بعد البكاء.

الوداعة كانت موجودة في أزمنة العهد القديم. على سبيل المثال، قيل عن موسى بأنه كان وديعاً جدّاً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض (عدد ١٢ : ٣). وهكذا بالضبط قيل عن وداعة رئيس الآباء يعقوب والملك داود *("اذكر يا ربّ عبدك داود وكل دعته")*. ولكن بعد

المسيح فقط دخلت الوداعة في عداد الفضائل الضرورية لارتقاء روح الإنسان. لقد قال ابن الله عن نفسه: *"أنا وديع"*، وكما يكون هو هكذا يجب أن يكون أتباعه. الوداعة هي الفضيلة الأولى للمسيح التي لفتت انتباه الناس. *"هذا هو حمل الله"* – هكذا نادى القديس يوحنا السابق عندما رأى الميسيّا على شاطئ الأردن. كان الآخرون في نفس الوقت يتدافعون ويتزاحمون مسرعين إلى النبي ليسمعوا خطابه وليقبلوا المعمودية. أما يسوع فلم يُسرع، لكنه مشى بوداعة متجاوزاً عن الآخرين مثل الحمل الذي لا يمسّ أحداً ولا يسيء إلى أحد. هو مشى مثل الحمل الذي يبتعد عن الجميع ويتحاشى الصدام مع الآخرين.

الوداعة تظهر قبل كل شيء في عدم السعي الى إشغال الصفوف الأولى، وهذا يحصل نتيجة للإخلاص المطلق لمشيئة الله. الوديع يعرف أن الخالق يضع الناس كلّ واحد في مكانه كما يشاء هو، والوديع مستعدّ أن يخضع لمشيئة الله سواء كان في الصفوف الأولى أو في الصفوف الأخيرة. بالنسبة له ليس المهمّ في أي مكان يضعه الله، ولكن الأهمّ أن يتمّم مشيئة الله من أي مكان يكون فيه. الوديع يعرف أن الذين في الصفوف الأخيرة إذا سلّموا أنفسهم لمشيئة الله سيحصلون على إكليل مجد أعظم من أولئك الذين كانوا في الصفوف الأولى يتصرّفون بحسب مشيئتهم الشخصية.

ويمكن التعبير عن الوداعة هكذا أيضاً:

لا تؤذِ أحداً وتحمّلْ بصبر جميع الإساءات.

بالحقيقة أنّ الحمل هو صورة الوداعة. تصوّروا المسيح واقفاً أمام القضاة المستوحشين. في حين كانوا يصرخون ويشتمونه ويبصقون عليه ويمزقون ملابسهم، وقف هو صامتاً مثل الحمل الأبكم. إن الهدوء والسلام في داخله كان مثل وميض السكون فوق هائج مزبد. كان هدوءاً عجيباً مستقصى عن الفهم بحيث أنّ الرسول يستحلف به المسيحيين قائلاً: *"أنا بولس أناشدكم بوداعة المسيح وحلمه"* (٢ كو ١٠ : ١).

والرسل أيضاً كانوا مشابهين تماماً لمعلّمهم في الوداعة. لقد أوصاهم أن يكونوا كالحملان في وسط قطيع الذئاب، أيْ أن يكونوا ودعاء مع الوقحين وصبورين مع المنتقمين. وقد علّمهم أن يكونوا صبورين مثل الأمّهات المرضعات اللواتي يعانين بسبب إرضاع أطفالهن ولكنهن يتحملن هذه العذابات بصبر: *"مع أننا قادرون أن نكون في وقار كرسل المسيح بل كنا مترفقين في وسطكم كما تربّي المرضعة أولادها"* (١تس ٢ : ٧).

بعض الزوّار تعجّبوا في زيارتهم لأحد القديسين كيف أن هذا القديس يتحمّل الشتائم من راعي غنم يقيم في جوار كوخه. فأجابهم القديس: **"هكذا أنا أتعلم أن أصبر على الشر قائلاً لنفسي: كيف**

أقدر أن أتحمّل شراً أكبر حينما يأتي؟".

كان هناك ستاريتس له جار يخدمه، وكان هذا الجار يسرقه دائماً. كلما دخل إلى حجرة الستاريتس كان يسرق شيئاً. لاحظ الستاريتس هذه السرقات، ولكنه لم يقل شيئاً له. وعندما حضرت ساعة موت الستاريتس واجتمع كل جيرانه حول فراش الموت، قبّل الستاريتس يديْ خادمه السارق قائلاً: **"أنا مدين لهاتين اليدين في أنني ذاهب الآن إلى ملكوت السموات".**

آه، **أيها الودعاء**، إنكم ستحصلون بالميراث على الأرض كلها. وأنتم تتحيّرون:

كيف هذا؟ . هكذا مثل الرسل.

أيّة أسماء معروفة اليوم في الأرض أكثر من أسمائهم؟ كلام أيّ حاكم مسموع الآن في كل مكان بجهارة أكثر من كلام الرسل؟ الذين لا يملكون الوداعة لن يرثوا شبر أرض، لا هنا ولا في الفردوس. وأنت، أيها المسيحي،

شيّدْ الطابق الثالث من هرمك الفردوسي بمعونة الوداعة. الوداعة تشبه الحجر الكريم "الجمشت" الذي يتلوّن بظلال رقيقة رائعة.

الطابق الرابع

"طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنهم سيشبعون"

• مخطّط بناء الطابق الرابع للهرم الفردوسي يتوقف على

العطش إلى البرّ

هنا تنشأ الضرورة إلى البرّ المتأسّسة على اشتياق مولع إلى الحق مماثل للجوع والعطش. إن الجوع والعطش كانا في كل الأوقات هما الدافع والحافز على الأرض. لكن الحديث هنا لا يدور حول الجوع والعطش الجسديين الذين يطفئهما الخبز والماء.

الحديث هنا يدور حول جوع أعظم وعطش أعظم، ذلك الجوع وذلك العطش الذيْن تحملهما روح الإنسان الوديع في داخلها والذيْن لا تقدر الأرض كلها بما فيها من مأكولات ومشروبات على إشباعهما. الإنسان الوديع كالحمل يقول دائما إنه شبعان وراضٍ لأنه يصمت ويصبر. لكن في واقع الأمر فإن هناك عطشاً عظيماً للبرّ يكمن في أعماق نفسه مثل البركان الخفي. من السهل إشباع المتكبّر، أي الذي يقضي كل أيامه على الأرض في تدمير نفسه، فهو يأكل كل وسخ الأرض،وما أن دفعته إلى الصفوف الأمامية ووضعته في مقدّمة القافلة البشرية يكون شبعان وراضياً. إلا أن الذي قد شيّد الثلاثة طوابق

الأولى من الهرم الفردوسي لروحه لا يشبعه شيء أرضي وفانٍ وجسدي. هو ينظر إلى العالم بعيون إلهية ويفكّر بعقل إلهي ويبحث عن البرّ الإلهي.

المقصود من كلمة البرّ هنا الحق والترتيب مثل الذين أشار إليهما الرب في الرؤيا: حقيقة عن الخالق وحقيقة عن العالم وحقيقة عن الإنسان وحقيقة عن الهدف وحقيقة عن الطريق. الحقيقة تعني الاستقامة في الداخل ومن الخارج وترتيب في الروح وفي الجسد وفي المجتمع وفي كل الوجود وفي كل شيء – فهذا هو الحق.

وبكلام أدقّ، فإن الحق يتكوّن من جزئين:

+ **معرفة الحق.**

+ **تطبيق الحق.**

كل ما هو ضروري للإنسان أن يعرفه ويفعله لكي يتقرّب من الرب الإله وينال رضاه يسمّى بكلمة واحدة، ألا وهي الحقيقة. الفرّيسيون لم يكونوا عطاشاً للحقيقة لأنهم كانوا متيقنين من أنهم يمتلكون الحقيقة. وبيلاطس أيضاً لم يكن متعطشاً للحقيقة على الرغم من السؤال الذي طرحه على يسوع: ما هو الحق؟ الجياع والعطاش إلى البرّ (إلى الحق) كانوا جميع أولئك الذين تبعوا المسيح

منذ البداية ولم يتركوه حتى موته. واليوم فإن العطاش إلى البرّ سيكونون أولئك العطاش إلى المسيح لأن يسوع المسيح هو كمال الحق وكل الحق وكل الترتيب، كما قال هو عن نفسه: *أنا هو الحق، أنا هو الطريق.*

هناك وعد للجياع والعطاش إلى المسيح كما إلى الحقيقة الكاملة بأنهم سيشبعون. كثيرون من المسيحيين الذين آمنوا بهذا الوعد ازدروا بالجوع الجسدي وبالعطش إلى العالم وانطلقوا يبحثون عمّا يروي ظمأهم الروحي. كثيرون منهم تركوا جميع الأشياء الدنيوية وتوجّهوا إلى البراري متوحّدين، وآخرون انعزلوا في المغاور، وآخرون امتنعوا عن الكلام وصاروا صامتين، وآخرون صعدوا على العواميد لكي يُنموا في أنفسهم العطش الروحي ولكي يرووا هذا العطش بالحق الإلهي، أيْ بالربّ يسوع المسيح.

هم كانوا عطاشاً إلى السماء، أمّا العالم فكان عطشاً إليهم.

طلب الإمبراطور قسطنطين العظيم القديس أنطونيوس من البرّية من أجل النظر إليه فقط. توسّل الإمبراطور ثيودوسيوس إلى الشيخ زينوبيوس لكي يأتي من مصر إلى القسطنطينية ليشاهده ويستمع إليه فقط. الإمبراطور لاون انطلق إلى البرّية لكي يشاهد الرجل القدّيس موسى الأسود. انظروا حكام الأرض العظماء الذين استيقظ في

داخلهم العطش الروحي، كيف أنهم نزلوا عن عروشهم باحثين عن اللقاء مع أولئك الذين أحسّوا بداخلهم بأنهم أكثر عطشاً والذين سعوا سعياً حثيثاً نهاراً وليلاً إلى أن يشبعوا من البرّ الإلهي على المائدة السماوية. وبالرغم من أن عطشهم السامي كان يلازمهم حتى نهاية حياتهم،

كان العالم يحسبهم شبعانين ومكتفين وراضين. هم كانوا يعتبرون شبع العالم جوعاً، أما العالم فكان يعتبر عطشهم شبعاً.

بالحقيقة إن اختيار أحد العطشين يُعدّ مهارة. من بين هذين العطشين اختار خدّام الرب العطش السماوي، **وبهذا العطش أنشأوا الطابق الرابع من هرمهم الفردوسي، وهو طابق متين وبديع مثل حجر الزمرد الثمين.**

فكّروا: هم الذين سيشبعون فقط، أما العطش الخدّاع للمُتع الدنيوية فلا يمكن إرواؤه لا في هذه الحياة ولا في الحياة الأخرى. تذكّروا ما قاله الخالق على لسان نبيه: *"هوذا عبيدي يأكلون وأنتم تجوعون. هوذا عبيدي يشربون وأنتم تعطشون. هوذا عبيدي يفرحون وأنتم تخزون" (إش ٦٥ : ١٣- ١٤).*

الطابق الخامس

طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون

إنّ من يتعطش ويتضوّر للغنى الأسمى هل يمكن أن يكون شحيحاً ويرضى بما هو أرخص؟ .

ومن يتعطش للحق الإلهي الدائم هل سيمسك في قبضته بتراب فاسد؟.

ومن يحلم بلباس الروح الخالد هل سيبكي ويكترب من أجل كِسوة من أوراق الشجر؟.

لذلك فإن الرحمة بالنسبة لمثل إنسان هكذا هي أمر طبيعي، كما أنّ المسافر المنطلق في طريق طويلة يوزّع على جيرانه كل حاجياته التي يصعب حملها في الطريق.

توزيع الأشياء المادية هي تضحية ضرورية ولكنها التضحية الأقل شأناً. الاهتمام بالنفس هو الشاغل الأكبر. مساعدة القريبين على الثبات في الحق وإرشادهم إلى طريق البرّ والصلاة من أجلهم هي تضحية عظيمة، لكن مع ذلك فهي ليست أعظم تضحية.

أعظم تضحية هي أن يقدّم الإنسان حياته من أجل قريبه.

هذه الرحمة أظهرها المسيح لكل الجنس البشري. هذه الرحمة على قدر من العظمة بحيث أنها لم تعد تُسمى رحمة بل غيّرت تسميتها وصارت تُسمى: محبّة.

الرحمة يمكن أن تنبع من عدة منابع، سواء من منابع نقية أو من منابع عكرة. أكثر منابع الرحمة نقاوة هي الرأفة. الرأفة هي القلب الرحيم. عندما يتراءف أحد من كل قلبه على سجين ويقدّم له المعونة باسم السيد الرب الرحيم، عندها فإن الرحمة عنده تنبع من نبع نقي وتحظى بتقدير عالٍ في السموات الملائكية. تذكروا القصص الرائعة عن الشخصين اللذين يُسمّيان بالرحومين، هما القديس يوحنا الرحوم والقديس فيلاريت الرحوم.

من يُقدّر الخيرات الأرضية أكثر من الروح فلا يمكنه أن يكون رحيماً. القديس غريغوريوس الذيالوغوس بعد انتخابه أسقفاً على روما كان متخوّفاً جداً من أن يفقد فقره، وقيل عنه إنّ خوفه من فقدان فقره كان أشدّ من خوف الغني من فقدان غناه.

الكتاب المقدس يقول: *"الرجل الرحيم يُحسن إلى نفسه" (أم ١١: ١٧).* عندما تقوم بأي فعل نحو الآخرين، فإنك تفعل هذا لنفسك مضاعفاً، لأن الله يرى كل شيء ويجازي. القديسة الأمّ سارة كانت تقول إنه يمكننا أن نربّي الرأفة في أنفسنا: **"اصنعْ الرحمة حتى لو بدافع إنساني أولاً، فستتعوّد يوماً ما على فعل الرحمة بمخافة الله".**

والقديس سيرافيم ساروفسكي كان بدوره ينصح: "**إذا كنت لا تمتلك شيئاً لتعطيه للفقير، فصلِّ للربّ من أجله**".

قال الربّ لأحد الشعوب الغير رحيمة: ***"أريد رحمة لا ذبيحة"*** ، بمعنى أنه من الأفضل أن تكونوا رحماء بعضكم مع بعض من أن تقدّموا لي ذبيحة. هكذا يحبّ الله البشر! إنه يعتبر رحمتنا للآخرين بمثابة ذبيحة مُقدّمة له. نحن بدون الله لا نقدر أن نكون رحماء مع الآخرين. تصوّرنا السليم عن الناس كإخوة لنا يعتمد على تصوّرنا السليم عن الله كأب لنا. على هذا الشكل تكون كل أعمالنا الصالحة والخيّرة نحو الآخرين مثل دوائر يكون دائماً مركزها الله.

ولكن كما أنّ وصية الله بشأن الرحمة واضحة، هكذا يتضح وعيده للغير رحماء. عبّر الرسول يعقوب عن هذا قائلاً: ***"لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة" (يع ٢: ١٣)***. أما الرحيم فسيُرحم في دينونة الرب الرهيبة. سيُرحم الرحيم في ملكوت المسيح الخالد الرحيم وسيكون محبوباً إلى الأبد من الملائكة والأبرار.

وهكذا، يُبنى بالرحمة الطابق الخامس من الهرم الفردوسي، وكل حجر في هذا الطابق مبني بفعل رحمة سواء نحو أنفسنا أو نحو الآخرين، أو نحو حيوان أو أي من مخلوقات الله. **كل هذا الطابق يلمع بزرقة السماء كما لو أنه مصنوع من حجر الياقوت الأزرق الكريم. هذا هو الطابق الخامس من الهرم الفردوسي.**

الطابق السادس

طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله

إنّ نقاوة القلب تقوم على الرحمة، فهذا من البديهي، بما أن الطابق السادس يقوم على الخامس. الشخص الأناني والشحيح لن يشعر أبداً بهذه الغبطة التي اسمها نقاوة القلب.

إنه لن يقدر أبداً على بناء الطابق السادس من هرمه الفردوسي، لأنه لم يقدر قبل ذلك على بناء الطابق الخامس. كان إبراهيم ممتلئاً من الرحمة، وهذه الرحمة نقّت قلبه، وبنقاوة قلبه عاين ابراهيم الله.

لماذا لا نتكلّم عن نقاوة الروح، وإنما نؤكد على نقاوة القلب؟ لأن القلب هو مركز الروح. من القلب تخرج الأفكار وفي القلب تختبئ الرغبات وفي القلب تعشش الشهوات كلها، لهذا فقد أُعطيت النصيحة في الكتاب: ***"يا ابني! فوق كل تحفّظٍ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة"*** *(أم ٤ : ٢٣)*.

طالما أن لبّ الشجرة سليم، فبإمكان الأغصان أن تتمايل على جذعها بلا خوف، لكن ما الفائدة من جمال الغصن وكثرة أوراقه إذا كان الدود ينخر قلب الجذع؟ كان القديس سمعان اللاهوتي الجديد يسمّي الخطايا بالدود. إن الخطايا بالنسبة للإنسان هي كدود السوس للخشب. ليس هناك خطايا تنخر قلب الإنسان بقوة مثل الخطايا

المختبئة. إذا أخرجتَ الدود إلى الشمس فهو سيجفّ ويموت. اعترفْ بخطاياك حتى ولو لشخص واحد، فستُغفر لك وتُمحى. فالدود والخطايا لا تنشط وتتقوّى إلا في العتمة، في العتمة فقط.

ما دام داود متمسكاً بشدّة بالشريعة الإلهية كان يتكلم مع الله وكان يخضع لمشيئة الله بسهولة. وما أنْ خالف الشريعة الإلهية، حتى توقف الرب عن الكلام معه وخاطبه من خلال أنبياء آخرين.

القلب النقي هو المرآة التي يحبّ الله أن يرى نفسه فيها. لقد خطّ الله اسمه العظيم والمُهيب في كل مكان، وفي أي لغز من ألغاز الطبيعة يمكن التخمين بوجود الله، ولكنه يُظهر نفسه مباشرة وبدون تخمينات في قلب الإنسان النقي. هكذا يستطيع الإنسان أن يرتقي فوق طبيعته! أي مجد وأي فرح استحقه البشر بأن يتشرّفوا بقبول الخالق كضيف في حجيرات قلوبهم! هذه سعادة عظيمة للبشر، ولكن الذين لم يلقوا نظرة في مذود بيت لحم أبداً ولم يشاهدوا مدى العمق الذي يمكن أن يتنازل إليه الله "المحبّة"، لا يمكن أن يؤمنوا بهذا إلا بصعوبة.

الإنسان قد يرتفع ويسقط، لكن الله لا يمكن أن يرتفع، يمكنه فقط أن يتنازل. ليس هناك علو أعلى من الله ليرتفع إليه الله، أمّا الإنسان فأعطي الإمكانية أن يُحلّق أعلى من نفسه ويرتفع إلى الأعالي الإلهية. وبسبب ضعفه يسقط الإنسان إلى الأسفل، ولكنه بقوة الله

يقوم. يجب على الإنسان فقط أن يُعدّ قلبه وأن ينقيه من أتربة الأخطاء الصغيرة ومن أوحال الخطايا الكبيرة، وكل ما تبقى تصنعه محبّة الرب الإله.

القلب يتنقى بالإيمان وبالرجاء وبالمحبّة، بمخافة الله وبانتظار الموت ودينونة الله الرهيبة، وبالدهشة وبالعجب من المخلوقات التي خُلقت بعظمة العلي وقدرته، وأيضاً باختبار مشيئة الله وبالصبر وبالوداعة وبأشياء أخرى كثيرة.

ولكن حتى لو تنقى قلب الإنسان بكل هذه الوسائل، مع ذلك تبقى في داخله رائحة التراب والخطيئة والموت، ولا تزال موجودة إلى أن يهب الروح القدس مثل ريح من أعالي السماء ويتهوّى القلب، وإلى أن يبرق مثل البرق ويملأه بالأوزون. ليس عبثاً يؤكّد آباء الكنيسة بأنه عندما يختفي مجرّد تذكار الخطيئة المفعولة، عندها فقط يمكن القول بأنّ القلب قد تنقى.

نقاوة القلب تشبه الكريستال الجبلي، ومنه يُبنى الطابق السادس في الهرم الفردوسي. يتسرّب نور السماء من خلال هذه الحيطان الشفافة ولا يُعيقه شيء، فلم يتبقَّ هناك أي أثر لأوساخ الخطايا، وليس هناك ما يعيق السماء من إنارة جميع زوايا ومخابئ النفس في هذا الطابق.

أيها المسيحي، عندما تدخل إلى ملكوت الله، فإن بناءك الروحي هذا سيفرّح ملائكة الله الأطهار والأطفال الذين أخذهم الرب إليه مبكراً والعذارى اللواتي عبرن بعذريتهنّ على جسر الموت إلى الفردوس. في طابقك السادس، الذي هو طابق النقاوة، ستلتقي بهم جميعاً ومعهم سوف تتمتع بمعاينة وجه الله.



الطابق السابع

"طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون".

نقاوة القلب هي أساس السلام والهدوء والراحة، وعلى هذا الأساس يعتمد طابق السلام، وهو الطابق السابع من الهرم الفردوسي المرتفع إلى السماء. لا يمكن أن يكون مسالماً ذلك القلب الذي تملؤه الأفكار الكاذبة والرغبات المجنونة لعالمنا الفاسد والأهواء المسعورة، لأنّ هذا كلّه يسبّب أمواجاً عاتية وعواصف مخيفة على رحابة بحر الحياة الإنسانية.

في المكان المرتفع تتنقى حتى المياه العكرة من البرك الآسنة. فارفعْ أنت، أيّها الإنسان، قلبك إلى الأعلى وسوف تنقيه السماء، وتحلّ الراحة في قلبك النقيّ، وسيتراءى الله في مرآة روحك الهادئة.

السلام والراحة هما عبارة عن لذة روحيّة. وكذلك نقاوة القلب هي أيضاً لذة روحية. من يمتلك السلام في نفسه، فهو يتمتع بلذة عظيمة في داخل نفسه. ولا أحد بمقدوره أن ينزع منه هذه اللذة.

من يتمتع بالسلام في داخله، فهو يمتلك المسيح، لأنه مكتوب: *"لأنه هو سلامنا" (أف ٢ : ١٤).*

إنّ من يتبع ملك السلام، فمن كلّ بدّ سيحرز السلام في داخله،

لأنّ المسيح يُدعى ملك السلام. من يرسو أثناء العاصفة على شاطئ المانح السلام سينال السلام وسيتوقف عن الخوف، لأنّ المسيح هو مانح السلام وهو الذي قال: "*سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم*" (*يو ١٤: ٢٧*).

من يقول إنّ الربّ قد سكن فيه، فهو بهذا يؤكّد على أنه يمتلك السلام في داخله.

لا يمكننا أن نظفر بالسلام الداخلي إلا مع المسيح، أمّا بدونه فلن نظفر به أبداً. يتكلّم الرسول بولس كثيراً عن المصالحة مع الله، غير أنّ هذه المصالحة لا تعني أن نعقد صفقة بين مشيئتنا ومشيئة الله، بل أن نُخضع مشيئتنا لمشيئة الله إخضاعاً تامّاً وفرِحاً. يتكلم بولس الرسول أيضاً عن مصالحتنا مع باقي الناس، وهذه المصالحة تعني الوئام بين مشيئتنا ومشيئة الناس الآخرين. منذ آلاف السنين حاول الناس أن يتفقوا وأن يصلوا إلى توافق فيما بينهم، ولكنهم لم يتصالحوا، لذلك يؤكد الرسول بولس على أنّ تحقيق السلام بين الناس لا يمكن أن يكون إلا من خلال اعتراف عامّ بمشيئة الله.

لكلّ صوت صدى. من يسمع صوت سلام الله في داخله، فإنه يستجيب له ويشعّ بهذا السلام على من حوله بدون أيّ مجهود، بل بكلّ سهولة وبخفّة النسمة. لذلك فإنّ صنع السلام يعني القبول والعطاء، قبول السلام من الله وإعطاؤه بدورك للناس وللحيوانات من

حولك. أجلْ، للحيوانات أيضاً! تذكّروا كيف أنّ قدّيسي الله عاشوا في سلام حتى مع وحوش البرّية وطوّعوها وكأنها خراف وديعة. وبالتالي، صنع السلام يعني حمل السلام للحيوانات أيضاً وللطبيعة المحيطة بأكملها، لأنه ليس هناك ما يزعج الطبيعة مثل اضطراب الإنسان الناجم عن الخطيئة. ليست الطبيعة هي التي تجلب السلام للناس، بل على العكس، الناس هم من يجلبون السلام للطبيعة. عندما يحلّ السلام بين الناس، عندها تنعم الطبيعة بالسلام.

صانع السلام سوف يُدعى ابن الله. سيدعى بنفس اللقب الذي يحمله المسيح منذ الأزل. صانع السلام يتقلّد عمل المسيح. إنه يدعو الناس للتآخي باسم الآب السماوي ويدعوهم الى المحبّة الاخوية باسم محبّة الله. من أجل إدخال السلام في العلاقة بين الناس هو يذكّرهم بأصلهم ويرتفع بهم إلى درجة أسمى من القرابة، وعلى هذا المستوى الأكثر سمواً فقط يمكن تحقيق السلام الحقيقي والسلام الدائم.

إنّ السلام المدني هشّ، بينما السلام الأخويّ هو المتين. ليس المشاركين في المواطنة، وإنما الإخوة يقدرون على قبول وامتلاك سلام الله الذي هو السلام الحقيقي. إنّ صانع السلام يعظ حتماً بصلة القرابة الدانية والعظيمة في عائلة الله، وهو واعظ لأبوّة الله السماوية وأخوّة البشر. **"أنتم إخوة، لأنّ لكم أباً واحداً في السماء!"** – هذا هو برهانه المنزّه عن الخطأ لصالح السلام والذي لا يناقضه إنسان عاقل،

وهو أكثر البراهين سمواً وإلهاماً من أجل تحقيق السلام بين الناس. ولأجل ذلك يتوجّه صانع السلام دائماً نحو الله المُساء إليه بصلاة قائلاً: **"اغفرْ لهم يا ربّ لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون، اغفرْ لهم، فهم أبناؤك وأنت أبٌ لهم!"**. فيستجيب الآب لابنه الصانع السلام، ومن خلاله يهب روحه القدّوس الذي يحمل عطية السلام السماوية للناس الحاقدين. والسلام هو الصحّة.

وهكذا بنشاط صُنع السلام يُبنى الطابق السابع للهرم الفردوسي. هذا الطابق مُشيّد كما من الذهب الخالص ويتلألأ ببريق الأصالة في سكون.



الطابق الثامن

"طوبى للمطرودين من أجل البرّ لأن لهم ملكوت السموات".

إنّ من يبني بيتاً شاهقاً من موادّ بناء أرضية لا محالة أن يثير حسد جيرانه الأشرار. أمّا الذي يشيّد هرماً فردوسياً من موادّ بناء روحيّة، سيثير حتماً حسد الشياطين.

أكثر الناس الذين تكرههم الشياطين هم أولئك الذين أحرزوا السلام الداخلي الثابت ويتمتعون بموهبة المصالحة بين الإخوة المتخاصمين، لأنّ الشياطين تجد لذة من نوع خاصّ في خصام الناس بعضهم لبعض، فهي تريد أن يعيش الناس في خصومة دائمة وأن يكونوا تعساء حتى يتذمّروا على خالقهم.

كان هدفها منذ البداية إرغام الناس على التمرّد ضدّ الله. هي استحسنت القاتل قايين وليس هابيل الوديع. هي تحبّ عيسو وتكره يعقوب، تحبّ شاول وتكره داود، تحبّ قيافا وتكره جمالائيل، تحبّ شاول وتكره بولس. ولهذا السبب هي لا تكلّ في اضطهاد الأبرار. هي إمّا بأنفسهم تشنّع على الأبرار، أو غالباً ما تشنع عليهم من خلال أناس متعفني النفوس. تجمع الشياطين الناس الضعيفي النفوس معاً وتوجّههم ضدّ أبطال الإيمان وضدّ فرسان الحق الإلهيّ. الله يرى هذا، ولكنه يسمح بأن يعتدي الناس الضعفاء والشياطين على خدّامه. الله البصير يسمح بكلّ هذا لكي يُظهر الضعف نفسه مرّة أخرى أكثر ضعفاً،

لعلّه يخجل.

الكليّ الحكمة يسمح بكلّ هذا لكي يرى الناس ويتأكّدوا من أنّ الحق حتى لو لبس الخرق يكون أقوى من الظلم اللابس التاج والجالس على العرش. الله الكليّ الصلاح يسمح بكل هذا لكي يزيّن خادمه بإكليل المنتصر مرّة أخرى. كما يهجم قطّاع الطرق واللصوص على الأغنياء في العالم، هكذا يهجم الشياطين الأشرار والناس الضالّون على الإنسان الغني بالروح.

القدّيس نيلوس يقاسمنا خبرته قائلاً: "**إذا كنت بالحقيقة تصلّي، فكنْ مستعداً لهجوم الشياطين**". الرسول بولس يخبر تيموثاوس كيف تحمّل المعاناة والاضطهاد في أنطاكيا وإيقونية ولسترة: ***"أيّة اضطهادات احتملت ومن جميعها أنقذني الرب". وفي الختام شدّد على القاعدة التالية: "وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون" (٢ تيم٣: ١١- ١٢).***

ولكن الربّ الإله سبق فرأى وتنبّأ ولم يخفِ شيئاً عن تلاميذه (مت ١٠). كانوا يطردون الرسل راجمين إياهم بالحجارة من مكان إلى آخر. كارهو المسيح تعقّبوا القدّيس أثناسيوس كما يتعقب الصيّادون وحشاً برياً. هكذا أيضاً اضطهدوا ميلينتيوس الأنطاكي. القدّيس يوحنا الذهبي الفم عانى ومات في النفي. وهذا ما حصل أيضاً للقدّيسة أولمبيادا التقية.

عدد المضطهَدين من أجل المسيح لا يُحصى.

أجاب القدّيس باسيليوس للقاضي الذي هدّده بالنفي بأنّ ذلك لا يثير إلا فرحه، لأنه ليس هناك مكان للنفي لا يكون فيه الله. يفسّر يوحنا الذهبي الفم الحكيم ثمار الاضطهاد على هذا الشكل: "**كما أنّ الزرع ينمو أسرع عندما يُسقى، هكذا أيضاً إيماننا، فإنه يزدهر أكثر ويتضاعف أسرع عند التعرّض للاضطهادات**".

بما أنّ ابن الله اضطُهد، فجميع أبناء الله بالنعمة رغبوا في أن يُضطهدوا. كانوا يحسبون هذا مكافأة وعرفوا أنهم يتألمون من أجل برّ الله. والمعاناة من أجل البرّ الإلهي هي مادّة ممتازة لتشييد الهرم الفردوسي.

الطابق الثامن من هرمهم الفردوسي يستند بمتانة على الطوابق السفلى السبعة، وهو بكامله يضيء بشكل عجيب مثل حجر الياقوت الأصفر الكريم. عندما ينتقلون إلى ملكوت المسيح، فإنهم على هذا الطابق سيتبادلون الحديث بفرح وسرور مع جميع أولئك الذين اضطُهدوا من أجل البرّ الإلهي منذ بدء العالم.

الطابق التاسع

"طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شرّيرة من أجلي كاذبين".

والآن أيضاً يدور الحديث عن الاضطهاد، ولكن قبل قليل كان الحديث عن الاضطهاد من أجل البرّ، أمّا الآن فعن الاضطهاد من أجل المسيح. هناك يمثّل البرّ منظومة الفكر والسلوك المسيحي، أمّا هنا فالبرّ الإلهي كله متجسّد في يسوع المسيح.

إنّ هذين الطابقين من الهرم الفردوسي مُشيّدان من نفس المادّة: الآلام من أجل البرّ والآلام من أجل المسيح. وهذه الآلام ثمينة لبناء القصر الروحي إلى درجة أنّ الربّ يكرّرها مرّتين ويطوّب أصحابها مرّتين، كما لو أنه يضع خاتَمين ويثبت بهما حقيقة جميع الفضائل السابقة.

الفرق هو أنه في هذه الحالة الأخيرة يُقصد بآلامٍ أشدّ قسوة وتعذيباً من تلك التي ذُكرت أعلاها. إنّ الإهانات والاضطهادات والكذب والافتراء والشتائم – وكلها من أجل المسيح – تنهال على المؤمن كآخر التجارب وأشدّها رعباً. تحت هذا الضغط حتى أكثر الحجارة صلابة يصير منبسطاً، فكيف يواجه قلب الإنسان كلّ ذلك! تحت شدّة أمواجٍ كهذه حتى أوسخ الأقمشة يصير أبيض، فكيف تثبت روح الإنسان!.

الحديث هنا يدور عن الشهادة من أجل المسيح. إنّ الذي يقبل هذه الشهادة طوعاً يقتني مادّة بناء لا تُقدّر بثمن لتشييد الطابق التاسع من هرمه الفردوسي. هؤلاء الذين استطاعوا بامتياز أن يبنوا الطوابق الثمانية الأولى من قصرهم الروحي أكثر شيء يرغبون فيه من كلّ قلوبهم هو أن يقدّموا حياتهم من أجل سيّدهم. إنّ هذا العطش للشهادة كان موجوداً دائماً في كنيسة المسيح مثل نار حيّة منذ أيام الرسل وإلى يومنا هذا.

عندما جاء الوثنيون بالرسول أندراوس "المدعو أولاً" إلى الصليب ليصلبوه، هتف الرسول منتعشاً وفرحاً: **"أيّها الصليب الحلو، كم طال انتظاري لك وكم كنت أحلم بهكذا نصيب!"**. أيضاً القدّيس أنطونيوس الممتلئ من كافة الفضائل كانت عنده رغبة وحيدة في شيخوخته وهي أن يُعذّب وينال موت الشهادة من أجل الإيمان المسيحي، ومن أجل ذلك غادر برّيته متوجّهاً إلى الإسكندرية حيث جادل الهراطقة، وذلك من أجل أن يُقتل على أيديهم. لكن تدبير الله كان مختلفاً، فرقد القدّيس أنطونيوس بسلام في برّيته.

تصوّروا مواكب الشهداء المسيحيين وهم ماشون نحو جلجثتهم، كيف أنهم في الطريق يرتلون الأناشيد الروحية بفرح وكأنهم ذاهبون ليس إلى الموت وإنما إلى عرس. لم يشهد العالم على مدى تاريخه مثالاً أكثر روعة.

كان الكثيرون من هؤلاء الشهداء قد عملوا لسنوات طويلة على تشييد أهرامات أرواحهم الفردوسية التي صارت الآن مرتفعة ومشرقة بكلّ طوابقها التسعة.

بعض الشهداء بدأوا للتو في بناء الهرم، وبالكاد لحقوا بتشييد طابق أو اثنين، والبعض الآخر لم يُدعوا مسيحيين إلا قبل يوم واحد أو ساعة، ثم استشهدوا من أجل المسيح. ومن أجل تضحيتهم الروحية سيكافئ الربّ هؤلاء بقصر روحي مبني من الطابق الأوّل إلى الطابق الأخير، لأنهم كانوا مثل أولئك الفعلة الذين استأجرهم السيّد لكرمه في آخر النهار وأعطاهم نفس الأجرة التي تقاضاها الفعلة الذين اشتغلوا طول النهار. كان القدّيس أدريان ضابطاً رومانياً، وبما أنه انذهل من تضحيات المسيحيين وصبرهم صار مسيحياً أيضاً. قال له الامبراطور الوثني: "**لا بدّ أنك جُننت يا أدريان!**". فأجاب الشهيد من أجل الإيمان المسيحي: "**لا أيّها الملك، أنا الآن فقط اقتنيت الرشد السليم**".

يوجد في عصرنا الحاليّ أيضاً مجال للاستشهاد، وهناك الكثير من الشهداء. لقد شهد ملايين الشهداء في روسيا وذكّروا العالم كلّه بأنّ عصر الرسل لا يزال مستمرّاً وبأنّ حصاد الربّ اليوم كثير كما في تلك الأوقات. ولكن الاضطهاد والتعذيب يلاحق المؤمنين في أماكن ليس بها اضطهاد رسميّ على المسيحيين. فعلى سبيل المثال، تعرّضت جارتنا للضرب من قبل زوجها الغير المؤمن الذي شتمها وطردها من

البيت لمجرّد أنها تؤمن بالله وتصلّي. فهل لا بدّ لها من الإمبراطور نيرون مضطهد المسيحيين، إذا كان هناك "نيرون" يعيش في بيتها وقد حكم عليها بالشهادة لأجل المسيح؟ أحد التلاميذ عاد من المدرسة ودموعه تنهمر، لأنّ التلاميذ سخروا منه وشتموه عندما قال إنه يحبّ يسوع المسيح. أحد الجنود تلقى لطمة على خدّه، لأنه رشم علامة الصليب في الطابور.

جميع هؤلاء هم بُناة مُكرّمون للأهرام الفردوسيّة، وفي الحياة الآخرة كلهم سيؤهّلون للوقوف في صفوف على مدّ البصر من الجند المرضي لله الذين تحمّلوا من أجل المسيح الشتائم والإهانات والضرب والافتراء وحتى الموت الأكثر إهانة.

سيكون الطابق التاسع من أهرامهم الفردوسيّة مرصوفاً بالياقوت الأحمر الذي بلون الدم والذي يتلوّن بلمعان سماويّ عجيب. على هذاالطابق يجتمع ويلتقي جميع المُضطهدين من أجل المسيح في هذه الحياة.

برج الفرح

يكتمل الهرم الفردوسي بالطابق التاسع. ولكن فوق الطابق التاسع يرتفع بناء يشبه الطابق العاشر أو مثل منارة تنير الهرم بأكمله من قاعدته التي هي التواضع إلى قمّته التي هي موت الاستشهاد. ليس الإنسان من يجتهد في إنشاء هذه المنارة، بل يضعها الربّ بنفسه من أجل محبّته. وبما أنّ هذه المنارة تولّد فرحاً لا يُنطق به في كلّ نفس عند مجرّد رؤيتها إياها، تُسمىّ هذه المنارة برج الفرح.

افرحوا وتهللوا لأنّ أجركم عظيم في السموات.

الفرح والتهلّل والأجر معاً! ليس ذاك الفرح المؤقت، بل الفرح الذي لا نهاية له. ليس المرح الجسدي الذي ينتهي بالمرارة وبخيبة الأمل، لكن التهلّل الروحي الذي يعني النعيم الروحي الأبدي. وليس ذلك الأجر الذي يُعطى لعامل المياومة، وإنما الأجر الذي يُعطى للابن، ليس من سيّد غريب، بل من الآب، وليس مقابل ساعات العمل، وإنما بالمحبّة.

يظهر برج الفرح هذا نازلاً من السماء وليس صاعداً من الأرض، وكأنّ الربّ يتقدّم من خلاله مستقبلاً الإنسان الذي يشيّد قصراً روحياً لنفسه. حقاً إنّ الخالق يزيّن ويضيء بمنارة برج الفرح جميع أركان هرمنا الفردوسي.

يضيء برج الفرح بأكمله بنور لا يوصف مثل حجر الماس الضخم

الجزيل الثمن. تنير أشعّته اللمّاعة كلّ البناء من الطابق الأوّل حتى الطابق الأخير، وهي تجمع بلطف جميع طوابق الهرم لتظهر وحدة متكاملة حيّة.

في ختام هذا الحديث يجب توضيح ما يلي: لا يرتكبْ أحدكم خطأ وينظر إلى بناء الهرم الفردوسي كأنه أيّ بناء أرضي. ليس هذا الهرم مادّياً، بل روحيّ. ولكن بالرغم من أنّه ليس مادّياً، فهو حقيقيّ وأكثر واقعية من أيّ بناء منظور. الهرم الفردوسي الذي يُرى من السماء خارج الجسد البشريّ يذكّرنا بإنسان، لكن ليس أيّ إنسان، وإنما الإله- الإنسان، الربّ يسوع المسيح نفسه. حيث أنّ ملكوت السموات لا يقدر أن يدخله من لا يشبه الربّ يسوع المسيح، ولا يستطيع أحد أن يدخله ببناء آخر خاصّ به يختلف عن ذلك البناء الذي قد خطّطه وصمّمه الربّ. وعندما يحين وقت الانفصال عن الجسد الأرضيّ، عندها سنرى بوضوح – كما ملائكة الله كلهم سيرون أيضاً – ما قد صنعناه نحن كمسيحيين أثناء حياتنا وما قد بنيناه على أساس الربّ يسوع المسيح. لنتذكّر كلمات خادم المسيح، الرسول بولس: "*ولكن إن كان أحد يبني على هذا الأساس: ذهباً، فضة، حجارة كريمة، خشباً، عشباً، قشّاً، فعملُ كلّ واحدٍ سيصير ظاهراً لأن اليوم سيبيّنه. لأنه بنارٍ يُستعلن، وستمتحن النار عملَ كلّ واحدٍ ما هو. إن بقي عملُ أحدٍ قد بناه عليه فسيأخذ أجرة. إن احترق عملُ أحدٍ فسيخسر*" (١كو٣:١٢- ١٤).

هذه الأهرامات المسيحية لهي أكثر ارتفاعاً من أيّ هرم فرعوني، ولكن يتعذر قياسها بالأمتار العادية، فهي ترتفع أعلى من الشمس والقمر ومن الكون المادّي كله. إنها ترتفع إلى السماء ولا يمكن رؤية عظمتها وجمالها إلا في السماء. هي لا تخشى الزمن ولا الأمطار ولا الريح ولا الصقيع ولا القنابل ولا القذائف ولا أية قوة تدميرية غاشمة. كل العالم عاجز أمام هذه الأهرامات المسيحية. هي قائمة خارج حدود الدمار والموت. لها ضمانة الخلود في العالم حيث اسم الموت لا يُذكر وشوكة الموت لا تنخز.

التراث السلافي الأرثوذكسي

Al Jabal